تعريب العقل العربي

د. محمد محمد عثمان بن طاهر
جامعة السابع من أكتوبر

المــــقدمــــة.

هذه بضع صفحات، لدرس من دروس اللغة، أرى أنها تكون مدخلا ــ ربما ــ إلى تقديم وعي جديد باللغة. لا سيما ونحن نعايش اليوم ابتعاد الجميع عن استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي، وعدم اعتمادها أداة التخاطب ووسيلة التعبير في مختلف مناحي الحياة العلمية والعامة.

إن الذي يقف من اللغة العربية هذا الموقف المريب، يدعى أن لكل عصر لغة، وكيف لنا أن نكتب ونعبر عن مشكلات عصرنا بلغة قرون ماضية، وكأن المفروض لكل عصر لغة!

إنني أحاول من خلال هذه الإطلالة، أن يكون لنا فكر ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة.

وبتعبير (Wagner)إن مفهوم الخلق في عملية الإبداع الإنشائي مرتبط بقدرة الإنسان على تخليص الكم من القيود التي يكبلها الاستعمال وتطهيرها مما تراكم عليها من ضبابية الممارسة. فالإبداع إحياء للكلمة بعد نضوبها. وفي إحياء الكلمة بعث جديد للتجربة المعاشة في الذات والزمن[1]

قال أبو هلال العسكري: " فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيف التأليف، وبعد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتنفر من الجاسي

[1] . عبد السلام المسدي الأسلوبية والأسلوب الدار العربية للكتاب تونس ص 113.

البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضاده ويخالفه........"[1]

التعريب قضية حساسة، تتعلق بالمصير والوجود الفعلي لأهل اللغة العربية، وهو بالمفهوم المقصود من هذا العمل، يعني تعريب الفكر، والرجوع إلى الأصالة، والإبداع بلغة ذات بعد عربي.

نحس ونحن نقرأ لعبد الله بن المقفع مثلا إحدى رسائله التي يتجلى فيها الإبداع اللغوي، أنه كان عالما بما يكتب، وأن نتاجه الأدبي لم يصل إلى ما وصل إليه، إلا بعد أن ملك زمام الكلمة، وعرف مفاصل الألفاظ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن نتاجه العلمي لم يرد هذا المورد إلا بعد أن تشبع بالفكر الإسلامي، وملك زمام لغة هذا الفكر، وليس كما يتردد أنه كان نتاج ثقافة فارسية.

لم يدع عبد الله بن المقفع يوما أنه ورث الفصل في القول عن الفرس أو اليونان، وإنما أكد أنه أخذ علمه وبيانه عن أئمة اللغة من العرب المسلمين، قيل عنه: "أنه كان أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني إلى بيان غرض وسهولة لفظ، ورشاقة أسلوب، ولا توصف بلاغة بأحسن مما وصف هو البلاغة، حيث يقول: البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها".[2]

ونحن نجدد العهد ونراجع الأصول من أجل بناء شامخ، يجب علينا أن نعي أن النتاج الحضاري لهذه الأمة قد بدأ متواضعا ثم صعد بصعودها وساد بسيادتها، وأنه بإمكاننا، إذا ما توفرت الإمكانات المادية والمعنوية، أن نعيد الصلات بين الحاضر والماضي، ونصل إلى ما نصبو إلية.

وباستقراء التاريخ العربي، نجد أن الأسلوب العربي قد استوى على سوقه، وآتى أكله، وصار من النضج بحيث أصبح وسيلة التأليف في مختلف فنون المعرفة، وأبواب العلوم، وذلك بعد أن اكتملت للمؤلف العربي عدته، ولم ينقصه الفكر، ولا جانبته الثقافة. وكما قيل: قلم وفكر وثقافة. لا بد وأنها خليقة بصنع كتاب.

[1] . أبو هلال العسكري. كتاب الصناعتين. البابي 1952. ص. 57.
[2] . أحمد الهاشمي. جواهر الأدب.مؤسسة المعارف. بيروت. ص. 164- 165.

إن بعد التعريب الذي أعنيه، هو النتاج العربي الخالص، بمعنى أن يكون الفكر عربيا والمادة عربية، والمنهج عربي، وعليه فإن التعريب ليس نقلا لأفكار أو ألفاظ ــ وإن كنت لا أنتقص الحاجة إلى هذا النوع من مناحي المعرفة ــ. إن التعريب هو الفكر العربي الخالص.

غير أنني أرى أنه من الإنصاف، الإشادة بمن يجمع بين الأصالة والتقليد، أو بالأحرى بين الأصالة والترجمة. وليس هذا القول بدعا. فهناك من سبق وانتحى هذا المنحى العلمي، وأثرى التراث العربي بنواصع الكلم وأوابد الحكم، وقد تمثلت هذه المرحلة في نتاج عبد الله بن المقفع، الفارسي الأصل المستعرب لسانا وبيانا.

ولعله من التجاوز أن نعد ابن المقفع من المؤلفين المستقلين، فهو لم يكن كذلك، وإنما كان يمثل مرحلة جمعت بين الكتابة والترجمة والتصنيف، ومن ثم فقد كان ابن المقفع يمثل مرحلة التطور الطبيعي، من ساحة الكتابة إلى ساحة التصنيف، والتي قادته فيما بعد إلى ميدان الكتابة باللغة العربية.

إحيـــــــــــاء اللغة:

تكرر القول حول الحاجة إلى تأكيد الصلة بيننا وبين معطيات الحضارة المعاصرة، بما تشتمل عليه من علوم وفنون، وما تحويه من أفكار وآراء، والحضارة في مجملها لا تعدو أن تكون فكرا وأسلوب حياة، وطريقنا إلى الاستفادة منها يجب أن يكون عبر قناة اللغة الصحيحة، والفكر العربي القويم، فليس أمامنا إلا أن نعي الواقع، ولا ندع لغتنا وشأنها، فاللغة هي وعاء الفكر وأداته.

وما نراه اليوم على كل الأصعدة من انحطاط لغوي، لعلى أبلغ العذر إن قلت إنه مدعاة للتقزز والاشمئزاز، فعلى سبيل المثال تجد عددا غير قليل من أساتذة الجامعات، وأطباء المرافق الصحية، يخلطون أحاديثهم الرسمية بالعامي الركيك، والمصطلح الأجنبي النشاز، وإذا سألت عن السبب تجد أغرب الإجابات التي تدعو إلى السخرية، وهي ادعاء هذا وذاك بأن اللغة الأجنبية أطوع، واقرب جنا، والحال أن كلا الأمرين ليس له ما يدعمه علميا ولا واقعيا، فقد عايشت الأمرين معا وتبين لي بعد التجربة أن إجادة اللغة الأم يساعد كثيرا على تعلم اللغة الثانية، فاللغة هي اللغة أيا كانت، وليس

هناك من فارق اللهم إلا فارق ترتيب التراكيب وبالطبع مخارج الأصوات واختلاف النظم النحوية.

وفي معرض الحديث عن إحياء اللغة، تجدر الإشارة إلى أن أهمية تعلم اللغة الأم، والحرص على درس قواعدها وسلامة نطق أصواتها، مما يجب الاهتمام به من قبل صانعي القرار في عالمنا العربي، الذي يعاني أبناؤه من بين ما يعانون، الغربة الثقافية، وفقدان لذة الانتماء وأن يكون للإنسان وطن ولغة.

وفي هذا الصدد تحضرني قصة ذلك المهندس العائد إلى أرض الوطن، بعد أن أتم شطرا من تعليمه التخصصي في الولايات المتحدة، والذي جاء زائرا وعائدا، فقد بدأ الحديث عن تخصصه وماذا درس، وأبدي وأعاد وتفنن في استخدام غريب المصطلح المشوب بركيك العبارة، مما حدا بأحد الحاضرين والذي كان من أهل العلم، أن يدعو له بصلاح الحال، وأن يعوض الله فيه البلاد والعباد خيرا. وليس ذلك ببعيد عما حدث ذات يوم، وفي أحد المؤتمرات الطبية العالمية الذي انعقدت جلساته بأحد فنادق الخمسة نجوم، والذي كان حضوره مكثفا من قبل المهتمين بأمراض القلب وبالطب عن بعد، عدا المهتمين بالقضايا العلمية وما يستجد من أحداث على الصعيد العلمي عامة. وبما أن الدنيا وكما يقال ـــ لازالت بخير ـــ فقد أخذت الحمية أحد الأطباء المتميزين علما وثقافة أن يمرر استبانة على المشاركين من الأطباء العرب تتعلق بمدي موافقتهم على استخدام اللغة العربية في المجالات الطبية، ويا لهول ما سمع ورأى، فقد جاءت نسبة 90% ممن يرى عدم الجدوى من استخدام اللغة العربية.

لعل الذي يهم في سرد مثل هذه الوقائع وغيرها مما لا يسع له المجال والتي تتكرر وتشاهد على مرأى ومسمع من أساطين اللغة العربية وحماتها، وأمناء مجامعها ـ هو تكرار قرع نواقيس النوى، وتأكيد القول من أننا إذا أردنا للغتنا أن تحيى، ولثقافتنا أن تبعث من جديد، فخير لنا الرجوع إلى ذلك النبع الفياض، وتأكيد العودة إلى اللغة العربية وإحياء مفرداتها داخل قاعات الجامعات وفي المعامل والمختبرات، بل وفي غرف العمليات، من أجل أن ندرك الصلة الوثيقة بين هذه اللغة وبين مستعمليها، لأن اللغة العربية من بين أبرز عناوين الهوية، وهي فوق ذلك كله، هي مفتاح تلك

الكنوز الضخمة من الماضي، ثباتها لم توازيه أي لغة، فالعربي إذا ما أخلص النية، يستطيع أن يعبر إلى السجل الكامل لما مضى من السنين، ويفهم ويعي ما سطره يراع الأجداد في عصر النهضة والإشعاع.

إن لغة بهذه الصفات جديرة بأن تتبوأ الصدارة في كل مناحي الحياة، وأن لا يترك العنان للهجات أقل ما يقال عنها، أنها مصاحبة للجهل والسوقية، فوضوية لا قواعد ولا جذور لها، "لا تستحق أن تسمى لغة ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية كما يقول طه حسين"[1]

وسائل تنمية الحقيقة اللغوية:

إنه من الضروري ونحن نسعى إلى تفعيل دور اللغة العربية الصحيحة بين أبناء المجتمعات العربية، لتكون لغة الفكر والعلم بل ولغة الحوار اليومي، أن نشير إلى أهم وسائل تنميتها، مثل:

أ- **ممارسة النشاط اللغوي**: بمعنى أن لا تبقى الكلمات رهينة المعاجم، مختزنة في القواميس، لأن الكلمة في القاموس كما يقول: (أوتو جسبرسن) "كالعملة في البنك، لها قوة التعامل ولكنها لا تمثل تعاملا بالفعل، أما الكلمة الواقعية أي في الكلام، فهي عملة جارية سيارة، لها نشاطها وقيمتها الواقعية"[2]

وبناء على ذلك، فإنه لزاما علينا نحن أهل هذه اللغة أن نجد طريقة تجعل من هذه الكلمات ـــ حبيسة القواميس والمعجمات ـــ مخرجا، لتكون عملة جارية فاعلة، وذات قيمة واقعية، تمكننا من التفكير فيها وبها، وإلا كان وجوده كعدمها.

يقول (Wudwig Wittgenstein): إن كل كلمة تبدو في حد ذاتها كما لو كانت شيئا ميتا، وما الذي يعطيها الحياة؟ إنها تكون شيئا حيا أثناء استخدامها، فهل دبت فيها الحياة بهذا الشكل أو أن الاستخدام نفسه هو حياتها"[3]

ب- **التخاطب والحوار**: أثناء التخاطب والحوار، تزداد نسبة الاستماع إلى مفردات اللغة وعباراتها، ومن ثم تسترجع وتختزن الكثير من هذه المفردات والتعابير، وتكون

[1] . محمد راجي الزغلول. دراسات في اللغة. 1986. بغداد. ص، 103.
[2] . محمد المعتوق. الحصيلة اللغوية. عالم المعرفة. العدد 212ز المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب. الكويت.
[3] . المرجع السابق. ص. 263.

قادرة على استعمالها وقت الحاجة ولفترات طويلة ــ حسب الفرص المتاحة ــ وهذا لا يعمل فقط على تمكين المتكلم من السيطرة وحسن الأداء، وإعطاء كل صوت حقه ومستحقه، وإنما يساعد على ثبات هذه التعابير والكلمات في الذاكرة، ويسهل على مكتسبها استرجاعها، وذلك مما يساعد على نمو القدرة اللغوية وتنوع إمكانات المستعمل للغة، ومن ثم استقرار هذه الأمور في الذاكرة، حتى يكون استعمالها طبيعيا، ودونما معاناة، الأمر الذي يمهد الطريق أمام التفكير بهذه اللغة في شتي مناحي الحياة، وهو ما نطمح إليه ونريد تأكيده والعمل عليه.

ج- **<u>ممارسة الكتابة</u>:**

من المهارات اللغوية المهمة والتي يحرص عليها دارسوا اللغة ومعلميها، ممارسة الكتابة، وحسن الاستعداد لصياغة الكلمة، لأن المرء عادة لا يجد المجال أثناء "التخاطب الشفهي للتداعي اللفظي أو تداعي الأفكار والمعاني إلا بشكل محدود أو ضئيل، بسبب السرعة التي يقتضيها هذا التخاطب أو بسبب الانتقال إلى فكرة أخرى أو من ووقف شعوري إلى آخر بإرادة من الطرف الثاني الذي يبادل الحديث"[1]

وممارسة الكتابة تتيح للفرد أن يطلق العنان لفكره وخياله، فيستدعي ما يشاء ويتذكر ويكد الذهن ليتذكر في لحظات من التأمل أو التخيل أو الكشف، ومن هنا كانت أهمية ممارسة الكتابة في الطريق إلى التفكير باللغة، فالفرصة أكبر لدوران ما يسترجع من الذاكرة ولبقائه طافيا حاضرا في مخيلة من يمارس الكتابة.

د- **<u>ممارسة القراءة</u>:**

ممارسة القراءة حتى تكون عادة الفرد وتتمكن من كيانه، وتصبح من أهم ما يشغله بحيث لا يفوت يوم إلا ويقرأ شيئا ما، هي نوع من التريض النفسي. وتنحصر هذه الرياضة كما يعبر عنها فندريس: "في التوفيق بين الرسم والصوت وفي الجمع في دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية"[2]

---

[1] . المرجع السابق. ص.269.
[2] . فندريس. اللغة. ص. 239.

وفي إطار ما نحن بصدده، تبرز أهمية القراءة من زاوية أن الكلمات المقروءة تقرع جهازنا البصري بقدر ما تقرع كلمات المشافهة جهازنا السمعي، "لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن نرجع إلى صورة الكلمة البصرية التي تصحب دائما صورتها السمعية في أذهاننا. وكذلك صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعي، فترانا نعني لأنفسنا جمل الكتاب الذي نقرؤه، وعندما نكتب، نرى قلمنا يتبع الإشارات التي يمليها عليه الصوت الداخلي، فيمكننا أن نقول إنه في أثناء النشاط اللغوي لدى الشخص المتحضر العادي، تشترك صورة اللغة جميعا"[1]

وفي أثناء القراءة يكون إنعاش وإنماء مباشر للمخزون اللغوي، إذ أن القارئ يحتاج إلى تفسير ما يمر به من عبارات وألفاظ حاجة ملحة لا يمكنه في العادة التوقف حتى يقف على كنهها ويدرك معانيها. علما بأن رؤية الألفاظ نفسها مصوغة في جمل وتراكيب يضاعف من رسوخها وثباتها مع مدلولاتها في الذهن، وهو عين ما ندعو إليه ونرجوه في الدعوة إلى تعريب العقل العربي.

الممـــارسة وتقـــريب تعريـــب الفـــكر:

إن ممارسة استخدام المحصول اللغوي الذي سبق أن أشرت إليه، والذي يتمثل فيما تختزنه الذاكرة بعد عناء التحصيل، لما يساعد على حضور هذا المحصول الدائم في الذهن ومن فاعليته في التعبير، وكذلك العمل على إغنائه و تنمية الإسراع في استعماله والاستفادة منه على الصعيد الإبداعي. فمن الثابت في علم النفس"أن الخبرات أو المعلومات القديمة تساعد على خفض الفترة الزمنية اللازمة لتعلم مهارات جديدة أو تلقي معلومات جديدة"[2]

وهذا المبدأ يتمثل بصورة أكثر وضوحا في تعلم اللغة، وأن من ما حرص عليه مؤسسو علم اللغة قديما، وما يهتم به علماؤها حديثا، هو وجوب مراعاة علاقة الكلمة بجارتها السابقة واللاحقة، وأنه من المستحيل الوصول إلى المعنى المراد دونما فهم لهذه العلاقة الوطيدة التي يجسده علم النحو، المرتبط أساسا بغيره من علوم اللغة كالصوت

---

[1] . المرجع السابق.ص، 415.

[2] . الشرقاوي العلم ص،247.

والمعجم والصرف والدلالة، فهذه الكلمات المترابطة والمدركة شكلا ومعنى والمختزنة في ذاكرة المستعمل تعينه على إدراك مفردات أخرى مرتبطة بها أو مجاورة لها في أي كلام يقرأه ويسمعه بل ويكتبه ليعبر من خلاله عن فكرة، "إذ أنها تخلق سياقا معينا يعين على إدراك واستيعاب ما لم يوجد في الذاكرة من قبل، وبالتالي تدخل العناصر الجديدة إلى الذاكرة بسهولة نتيجة لارتباطها بالعناصر القديمة"[1]

وقديما تطرق فندريس إلى هذه الفكرة قائلا: "عندما نسمع جملة أو نقرأها نرى الكلمات التي تشتمل عليها يفسر بعضها بعضا، فإذا كانت واحدة منها غير مألوفة لنا ــ والواقع أن هناك دائما فترة في حياتنا نسمع فيها الكلمة لأول مرة ــ حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص.

ويمكن القول في هذا السياق أنه كلما كانت العناصر القديمة والحصيلة اللغوية أوفر، كان استغلالها أمكن، وألفاظ عباراتها أنصع، وطابق الكلام مقتضى الحال، وأن الألفاظ المكتسبة كلما كانت مستمرة الحضور في الذهن كانت عملية اكتساب الألفاظ أو المواد الجديدة أسرع وأكثر إيجابية، وبالتالي كان الوصول إلى الإبداع واستعمال اللغة إلى ما يراد من النص أسهل. ولعل هذا ما أراده الجاحظ من قوله: "إن الألفاظ إذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أكرم ثمرة، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر"[2]

منـــهجيـــة تعـــريب الفكـــر:

الوصول إلى تعريب الفكر، يجب أن يعبر الطريق عمليا لا نظريا: هذا الطريق يجب أن يخلو من الحواجز والعراقيل، ومن هنا كان الكثير من التقارير حول أهمية التعريب بمعناه القريب، وهو: تعريب اللفظ الأعجمي، غير أنني اعتبر أن أسس الموضوع متشابكة ولا يمكن فصلها. التعريب بالمفهوم القريب هو حلقة الوصل إلى التعريب بالمعنى البعيد، وهو المقصود بهذا العمل.

[1] . محمد المعتوق. الحصيلة اللغوية. ص،277.
[2] . الجاحظ. رسائل الجاحظ: الرسائل الأدبية. ص، 207.

إن نظرة واحدة إلى تقرير معهد الدراسات والبحوث للتعريب، المقدم إلى المؤتمر الثالث للتعريب، والذي عقد بليبيا، جديرة بإلقاء ا لضوء على أهمية الموضوع، الذي أعتبره أمراً مصيرياً في سبيل الوصول إلى عربية الفكر، وليس إلى تعريبه، فاللفظ يعرب، لكن الفكر ربما يتم تغريبه، لكنه لا يعرب بل يولد عربيا.

وباستقراء التاريخ العربي، نجد محاولة علي بك الكبير، في اللحاق بالركب الحضاري الغربي، وإرسال البعثات العلمية إلى الدول الغربية، خاصة فرنسا، غرض الاستفادة من معطيات الحضارة لدي هذه الأمم، ومحاولة نقل العلوم إلى العربية، وما اشتملت عليه هذه البعثات من جهد ومصاريف، إلا أنه وبمجرد غزو هذه البلاد بلادنا، والتي كانت مصر في طليعة ما استهدف، تبخر الحلم و ذهب المجهود الضخم أدراج الرياح.

وما واقعنا اليوم إلا تكرار لتلك المأساة، ولعل السبب في ضياع ما ضاع وما سيضيع هو عدم شعور المواطن العربي بذاته، وحرمانه من أن يكون له ما أراده منه خالقه، الذي من عليه بالتكريم، وبأن يكون خليفته في أرضه.

إن عدم التركيز على التفكير بالعربية، وتعريب الفكر، سيجر علينا المزيد من المآسي، ولن تجدي المسكنات التي تتجلى في جلب الاختصاصيين من شتى أصقاع الأرض لأداء هذا العمل أو ذاك، لأن هذه الأمور أثبتت عدم جدواها، ولعله مما يجب الانتباه إليه والحال أننا نعيش عصر العولمة والشمولية، وتحكم القوي في مقدرات الضعيف، أنه لا مكان لنا كأمة تحمل فكرا، لها ماض وتريد أن يكون لها مشاركة في صنع أحداث الحاضر إلا إذا نظرنا بتمعن وروية إلى مسببات الفشل، ومن ثم العمل على معالجتها، ودرأ أسباب فشل ما سبق من أعمال، وما لم يوفق من مشاريع. .

إن حجر الزاوية في إنجاز عمل مثل التعريب الذي أقصد، يجب أن يكون الانطلاق من القاعدة، والتي يجب أن تكون مؤسسة، وقادرة على الخلق والإبداع.

وفي مرحلة الإعداد لخلق جيل من المفكرين بالعربية، ما من ضير في أن يكون هناك احتكاك، وتعلم لغير اللغة العربية، لأن في دراسة هذه اللغات وفي الاطلاع عليها

ما يدعو إلى إعادة النظر في النهج الذي نتبعه في تعليم قواعد لغتنا العربية، وفي الطرق السائدة في تدريسها وتعليمها.

إن الحرص الذي يتمتع به الغربي بصفة عامة يفوق الوصف، ولا أحتاج في إثبات هذا الأمر إلى كتاب أو إلى إخبار مخبر، فإنني خبرت الأمر بنفسي وعايشت هذا الحرص وهذا الاهتمام، وكان هاجس اللغة والكتابة بشكل صحيح، الشيء الأهم في انجاز أي عمل علمي كلفت به، أو شاركت فيه.

هذا الحرص وهذا التفاني، وهذا الإخلاص المنقطع النظير، والذي تحول بفعل السنين إلى قانون مقدس لا يقبل التغيير أو التبديل. يقابله تهاون مهين، وعدم اكتراث مشين في متطلبات لغة البحث في مرافقنا التعليمية المختلفة.

ولا نستغرب أن تعد رسالة جامعية في فرع من فروع المعارف التجريبية، وتكون لغة الباحث ضعيفة، إلا أن الأمر يكون أدهى وأمر. إذا كانت هذه الأطروحة العلمية في الدراسات الإنسانية عامة، وفي اللغة العربية وآدابها خاصة.

من بين ما يهم تكرار الإشارة إليه، هو الحث على تغيير الواقع اللغوي، والنظر إلى أهمية اللغة العربية، حتى يتسنى لنا إرساء دعائم التعريب، ونصب مناراته شامخة قادرة على التصدي لما يثار من زوابع وعواصف.

وفي عمل سابق كتبت وزميل لي عن المصطلح العلمي، وفيه تخيلنا واقع العالم العربي العلمي والثقافي، وكان وليد هذا التخيل نموذجا واضحا نتج عنه بعض المعادلات الرياضية، والتي بدورها ساقتنا إلى منحنيات بيانية، توصلنا من خلالها إلى أهمية العمل السريع من أجل اللحاق بالركب العلمي الذي عليه العالم المتقدم، وكيف يكون الحال لو قدر للغة العربية أن تتبوأ المكانة التي طالما تبوأتها قديما، أيام أن كنا سادة العالم ورسل الحضارة, وأساطين العلم، وفي العمل ذاته بينا مقدار ما نحتاج من وقت للحاق بالركب الحضاري العالمي، وكيفية الوصول إلى نقطة التعادل، وما هي النسبة المأوية التي يجب أن يكون العمل عليها. وكانت النتائج رائعة في حالة ما إذا تم العمل من قبلنا بنسبة 4 ـــ 1 ، وفي المقابل كانت مخيبة إذا عملنا أقل من هذه النسبة. 1ـــ4.

ومن أجل المساهمة في حل ما أعتبره مشكلة، أعترف أنه يجب توخي الحذر الشديد في التعامل مع اللغة العربية وصولا إلى التفكير بها، وعلى حد تعبير جعفر دك الباب الذي يرى أن النظر إلى اللغة العربية يجب أن يكون واعيا؛ "لأن اللغة العربية لغة القرآن الكريم من ناحية، ولأنها من المقومات الأساسية للأمة العربية من ناحية ثانية"[1]

المــقصــود بالتعــريــب:

التعريب بالمعنى الذي أعرضه هنا، ليس البحث عن حلول لمشاكل معينة تعترض سبيله، بل المقصود به الإنسان ولغته، ومن الإنصاف أن أذكر هنا تفتق الذهنية العربية، والتي بدأت خاصة في المجال اللغوي في أولويات القرن الثاني الهجري، على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي .ت 175.هــ. الذي افتتح عصر التأصيل المعجمي في معجمه الشهير "العين"، ثم توالت الجهود في وضع الكتب المختلفة كما ونوعا، بحيث لم نعدم رؤية توالي الإبداعات العربية حتى منتصف القرن السابع الهجري، وبالتحديد ومباشرة بعد سقوط الخلافة في بغداد، فقد آلت شمس الإسلام إلى غروب، وتحول الإعجاز إلى عجز، وأخذ التعب من هذه الأمة كل مأخذ.

وهذا ما يؤكد صحة القول: بأن الذهنية العربية في ظل الإسلام ودولته كانت على أتم حال، وأنها شارفت النضج العلمي الممنهج، وأن الفكر العربي بالمعنى الشمولي والعام كان المحرك الأساسي لكل عمل ناجح، وأن اللغة العربية بدورها استدعت بما لا يدع مجالا للشك جهود علمائها الباذلين في مجال التأسيس والتقعيد والتنظير، حماية لمصطلحاتها العلمية أن تشتبه معالمها، أو أن تختلط أنسابها وأسبابها.

وقد كان علماء العربية عند حسن الظن بهم, فهم أعطوا أروع ما عندهم وأورع ما عند العالم في ذلك الزمن.

وقد عايشت هذا الأمر حديثا، ففي إحدى حلقات النقاش، والتي تعقد من وقت لآخر بجامعة فيينا قسم الدراسات اللغوية ــ حيث قضيت فترة ما بين 1995 ــ 1999 كباحث زائر ــ التقيت البريفسور درسلر عالم اللغويات ذائع الصيت، وصاحب نظرية

---

[1] . جعفر دك الباب. نحو نظرة جديدة إلى **فقه اللغة**. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. 1989. ص، 20.

ما يسمى بالصرف الطبيعي، وفي هذه الحلقة دار نقاش حول ماهية الصرف ودرسه، والنظريات المختلفة التي تناولت ماهيته وأهمية دراسته.

وبعد استماع مني لوجهات النظر المختلفة حيال هذا الموضوع العلمي، قمت بشرح النموذج الصرفي العربي، وما قام به علماء اللغة العربية من أعمال، وكيف انتبهوا إلى أهمية دراسة الصرف، وعلاقته بغيره من أفرع علم اللغة. عندها قام الأستاذ درسلر وقال معلقا: ليس هناك من ينكر الدور الرائد الذي قام به علماء اللغة العربية، فقد كانوا أعظم من أعطى، وأن نظرياتهم في هذا الصدد لا تزال منارات هدي على مر العصور وتعاقب الأزمنة.

وإذا ما رجعنا إلى استقراء التاريخ العربي، فإننا نجده حافلا بما يؤكد ثراء الفكر العربي، وما تجسد في العصر العباسي من ابتداع طرق التوسع في مدلول الكلمات العربية، وطرق التعامل مع المفردات ذوات الأصول غير العربية، فإننا لا شك سنجد ما يدعو إلى الفخر، ويحث على بذل الجهد لرفو الفتق وإعادة الأمور إلى نصابها.

وفي الوقت الحاضر، فإن مما يدعو للأسف أن لا يكون في العربية قاموس واحد بجودة وشمول ووضوح قاموس "Webster" في اللغة الإنجليزية. ولا توجد لدى العرب دائرة معارف بمستوى "دائرة المعارف البريطانية"، وما تراه اليوم من أعمال تفوق الوصف وتتعدى حدود الخيال في ثقافات وعلوم لغات مثل اللغة الإنجليزية، والفرنسية وغيرهما من اللغات الحية، خاصة بعد ظهور ما يسمى بالشبكة المعلوماتية، وما استفادته هذه اللغات من الثورة المعلوماتية، والطفرة في عالم الاتصالات.

إننا وبتوفر هذه الإمكانات العالية، أصبح لزاما علينا أن نعيد الكرة المرة تلو المرة، ونؤصل الفكر وندعو إلى تعريبه، آخذين بعين الاعتبار، أننا لسنا غرباء عن الحضارة، وأنه وعلى الرغم ما بنا من أوجاع وآلام، وما نعانيه من ويلات، في مجملها نتائج ليال دكماء، لا زلنا والحال على ما هي عليه قادرين على تدارك ما فات، وأن نعود إلى الأصالة، وتأصيل الفكر العربي باللسان العربي.

اللـــغة والفـــكـــر:

اللغة كما يراها كثير من اللغويين هي بنت المجتمع، لأنها بطبعها لا توجد إلا داخل وحدة اجتماعية، وضمن احتكاك وتفاعل بين أفراده، وحصر وجوده داخل هذا الإطار الجماعي والاجتماعي، يدل دلالة صريحة أنها مكتسبة وليست غريزية، وأن الله جل وعلا خلق في الإنسان قدرة الكسب لهذا المنشط؛ حتى يتمكن من أداء وظيفته ضمن حدود الجماعة التي يغشاها.

واللغة من حيث هي مؤسسة وجودية تستوعب من الإنسان على حد تعبير محمد الشهرستاني "التمييز العقلي والتفكير النفساني والتصوير الخيالي وهي معان في ذهن الإنسان مختلفة الاعتبار فإن نحن قدرناها من زاوية العقل الخالص تركزت وظيفتها التمييزية، فتكون اللغة معان كلية مجردة متحدة متفقة، وإن نحن اعتبرناها بمنظور النفس كانت تفكيرا وترديدا للظفر بالحد الأوسط والاطلاع على الدليل المرشد والعلة المسببة، وإن فحصناها بمعيار الخيال كانت تقدير المعقول بالمحسوس، ولكن حكم القيادة في كل هذه التقليبات بين حقائق تبعا لوظائفها إنما هو فكرة المواضعة بمحكم الاصطلاح الموقوف عليه بضرب من المصادرة".[1]

كان يعتقد أن المعرفة اللغوية هي غير تعلم اللغات بقواعدها وأنحائها، لأن اللغة حسب الاعتقاد الذي ساد ردحا من الزمن، ما هي إلا نظام طبعي(Habit System) وعليه فإن النتاج اللغوي قياسي، إلا أن الأمر حسب زعمي عكس ذلك تماما، فاللغة وما تحويه من ألفاظ وأشكال وتركيبات مختلطة من المعارف العلمية المتداخلة، تجعل من "المعرفة اللغوية" أثرا في غاية الأهمية، وأن نشدان هذه المعرفة يتجلى في اكتساب ممارستها في وقت مبكر من مراحل العمر. ومن المكن أن نصف هذه المعرفة بالمقدرة اللغوية، إلا أنه من نافلة القول توضيح أن هذه المقدرة المكتسبة، تختلف من شخص إلى آخر، دونما مساس "بالمعرفة اللغوية"، لأنه من الممكن جدا أن يحسن أحد مستخدمي اللغة من مقدرته اللغوية للاستفادة من المقدرة الكامنة (Tacit Knowledge).

[1]. محمد الشهرستاني، نهاية الاقدام، ص. 318-319،ت

وفيما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والفكر، فقد حاول الإجابة عن هذه القضية عدد كبير من أرباب الكلمة وأولوا الفكر، فمن قائل : إنه لا رابطة ضرورية بين الفكر واللغة، ومن قائل: إن اللحمة بينهما وثيقة، وهو ما أدى إلى إثراء المكتبات العلمية ببحوث حول أسبقية أحدهما على الآخر. هل الفكر أسبق؟ أم اللغة؟

غير أن الكثير من الدراسات أثبتت أنه لا يمكن القول بأسبقية أحدهما، وإنما يخضعان لتأثير متبادل.

"وكان اتجاه الفلسفة هو: "أن الفكر سابق على اللغة، غير أن الدراسات العلمية للغة أثبتت أنه لا يمكن القول بأسبقية أحدهما على الآخر، وإنما يخضعان لتأثير متبادل، وإن كان تأثير اللغة في الفكر أقوى من تأثير الفكر في اللغة"[1]

ولا أجانب الحقيقة إذا ادعيت أن اللغة هي الوعاء الحقيقي للفكر، فالفكرة تولد متشابهة ومختلطة المعالم، لدى أصحابها، وما من طريق إلى إيضاحها وبيانها إلا عبر اللغة بألفاظها وتراكيبها، ونسق جملها، وصحة مبناها، ووضوح غايتها.

واللغة العربية كانت وسيلة للتخاطب وأداة للاستعمال ووعاء يحوي إبداعات الأمة في شتى ضروب الفنون والثقافات التي تجسد وحدتها.

إن اللغة العربية هي: الفكر والوجدان, والذاكرة الحافظة، ولم تكن العربية وهي في أوج ازدهارها إلا أداة للتعبير الحر، المرتبط بالفعل وحرية الإرادة، والقدرة على الإبداع.

إنه من الممكن لحاضر اللغة العربية أن يتآلف، ويستعيد أمجاد الماضي لو أن أهل العربية اعتمدوا التفكير بها، وأظهروا قدرا من الاعتزاز والنصرة لها، لكن المؤسف أن غالبية الأجيال الحاضرة فقدت التأصيل الثقافي، وأصبحت عالة على الغير، ولم تعد قادرة على التخلص من هذا التردي الذي فقدت في خضمه هويتها.

[1] . عمرو أحمد عمرو. دليل المترجم اليونيسكو، فيينا. 1984. ص، 1313.

إن الرجوع إلى هذه اللغة واستعمالها والتفكير بها، تدعو إليه تعاليم الإسلام، فاللغة العربية بعلاقتها العضوية الحميمة بالإسلام، "استحوذت وبعمق اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الإسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم"[1]

خاتمـــــــــة:

وبعد استعراض مصطلح التعريب، وأن المقصود به تعريب الفكر أولا، وتوفير مستلزماته على اختلافها ثانيا. أقول إنه لو قدر لهذا الحلم أن يتحقق، وأن تداخل اللغة العربية نفوس متكلميها، وأن يؤمنوا بإمكانية عطاءاتها، وقدراتهم على الإبداع بها، لصار حاضرنا أفضل من أمسنا القريب، وغدنا أوضح سبيلا من الاثنين معا.

إن رد الاعتبار لهذه اللغة وللأمة، لا يكون إلا برد الاعتبار للغة منهجا ومرجعا وتربية، والوصول إلى امتلاك ناصية السيادة الثقافية، وعدم الضياع في غياهب الفوعلة، جميعها تكمن حيث اللغة.

ويمكنني القول: إن من بين أهم الأسباب التي بها يستطاع الدفاع عن حضارتنا، والتمسك بأصولنا الثقافية ـــ الرجوع إلى فهم واستيعاب معطيات هذه اللغة، التي اختصها الله من بين جميع لغات البشر بأن تكون لغة القرآن الكريم.

وعليه فإن الرجوع بالتعريب إلى الفكر، وإلى العقل، يضع النقاط على الحروف، ولا يدع مجالا للشك في أن هذه اللغة ستقوم بدورها الفكري على أتم وجه، خاصة إذا راعينا المكانة الاعتبارية التي تتميز بها اللغة العربية، لدى العرب عامة والمسلمين منهم خاصة. وإذا آمنا بأن هذين الوجودين، يعتمدان في ارتباطهما على اللغة، وذلك بعد أن خسر العرب كل معارك التحدي.

الغاية قصوى، وإن بلوغ مثل هذه الأهداف لن يتم بين عشية وضحاها. وعليه فلا مناص من تضافر الجهود، وبعث جو من التكامل بين العلماء، وتبني جيل من العلماء ومن اللغويين أصحاب المبادئ، الذين لديهم القدرة على فهم واستيعاب ما سطره يراع الأجداد الأماجد، من أجل أن ينقلوا تلك العلوم بأمانة، وليوصلوه إلى النشء في حلل جديدة تواكب العصر، وتساير متطلبات الحضارة والزمن الذي نعيشه.

[1] . محمد راجي الزغلول. دراسات في اللغة. ص، 99.

يقينا، إن مثل هذه الأعمال لن تكون عفوية، أو غيبية، أو أن تترك للصدفة، بل على العكس تماما، يجب أن يعد لها ما يلزمها وما لا بد أن يلازمها من مال كاف، وقرار سياسي نافد، وتحضير اجتماعي متكامل. وعلاوة على ذلك كله بعث جيل جديد يؤمن بدينه، ويحرص على انتمائه, سليم التفكير, رفيع الذائقة، مضطلعا بفكر عميق، ومتسلحا بلغة صحيحة المبنى والمعنى، قادرا على مد جسور المعرفة، وربط ما مضى بما هو قادم.

وبعد فإنني آمل من خلال ما قدمت، أن أكون قد وفقت في عرض هذه القضية التي أراها مصيرية، وأننا جميعا نحتاج إلى مراجعة الذات، وأقر بأنني مدين للدرس اللساني العام والحديث، في ا لوصول إلى عرض مثل هذه القضايا، ففضل اللسانيات العامة والمعاصرة في بلوغ عملي هذا بعض غايته جوهري، وهي كما قال المسدي: "هي التي وفرت لنا سبل التمازج بين حقول المعرفة، وهي التي أوصلتنا إلى مرتبة التأليف الشمولي، بل هي التي أمدتنا أساسا بمقولة القراءة من حيث هي مجهر يستكشف النص بالنص فيجعل الكلام رواية لذاته وحجة على نفسه"[1]

والمهم في خاتمة المطاف هو أن الرؤيا اللسانية، قد مكنتني من النظر إلى ما هو أعمق من بعض الإشكاليات السطحية، لتنفذ بي إلى اللغة من حيث هي حدث منجز، وأنها فكر يرتقي إلى منزلة الوصف الاختباري بتناول الحدث الكلامي بذاته ولذاته.

[1]. عبد السلام المسدي. التفكير اللساني في الحضارة العربية.الدار العربية للكتاب. 1981. ليبيا، تونس. ص، 368.